محمود درويش
قل للغياب: نَقَصْتَنِي، وَأَنَا حَضَرْتُ... لأُكمِلَكَ!

وسيم الكردي

"سيري ببطء، يا حياة، لكي أراك بكامل النقصان حولي.
كم نسيتك في خضمك باحثاً عني وعنك.
وكلما أدركتُ سرّاً منك قلتِ بقسوةٍ: ما أجهَلَك!".

يموت درويش، ويرحل كما يرحل الجميع، فلا استثناء؛ يطول العمر أو يقصر . . . الموت وجه للحياة وليس نقيضاً لها، ولا يمكن تعريفه إلا بها . . . خاتلَنا ورحل بغتة مع أنه كان يقول لنا في كل صدفة وفي كل قصد بأنه راحل . . . كان يقول وداعاً دون أن يلفظها . . . كأنه كان يخاتلها أيضاً كما خاتلنا، وليشفق على اللغة من مأمنه، وتشفق عليه من خديعتها. منذ سنوات سبع ويزيد، كان يهيئ نفسه لرحيل ما واقعي، وليس رحيلاً مجازياً كما كان يفعل في كل نص تقريباً، كان يستبطن الفكرة إلى أن تمكّن منها فتمكّنت منه. "**الآن، في المنفى . . . نعم في البيت، في الستين من عمر سريع يوقدون الشمع لك. فافرح، بأقصى ما استطعت من الهدوء، لأن موتاً طائشاً ضلَّ الطريق إليك من فرط الزحام . . . وأجلك**".

***

بلا لهاث وبلا تباطؤ خطفته الحياة من حياتها ونقلته إلى موتها . . . وفي الحالتين هو باق فيها. إنها الحياة تعطي وتأخذ وليس لها من دور غير ذلك، فما أصغره! سنذكره، لا لأننا نود تكريم الرمزي فينا عبره وحسب، بل علينا أن نفعل ذلك لأنه ترك فينا ولنا الكثير، وليست الحكمة هل أكثر أو أقل ما ترك، لكنها جديرة بالتذكر؛ للحكمة في تجربته وتجربة نصه ما يؤهله للتذكر، وما يؤهلنا أيضاً لكي نكون كما ينبغي أن نكون، جديرين به وجديراً بنا. لقد بثَّ في غدنا وردة للبقاء وسرّب لأمسنا نجمة للنداء. لأن الحكمة هي ما تجنيه الروح من تجربتها وتفقدها الريح في جنايتها على نفسها، علينا أن نقول إن لنا ما نتذكره ونبقيه حياً، ولا ضير إن أصبنا أو أخطانا، ففينا من العلم ما فينا من الجهل . . . وفي كليهما ما يمنح الآخر ألقه، من هناك بدأنا، ومن هنا سنبدأ أيضاً، فلا ضير في البدايات حين تؤسسها بدايات أُخَر . . . "**أنا آدم الثاني، تعلمت القراءة، والكتابة من دروس خطيئتي، وغدي سيبدأ من هنا**". إنها الحكمة التي نتعلمها، الحكمة وليدة الحياة، الحياة الغنية بما فيها من صوابنا وبما فيها من أخطائنا وخطايانا، لعلها الحياة هي التي تصوغ حكمتها على لسان الشاعر فتصوغنا، "**فجرِّب الآن الحياةَ لكي تدرِّبَكَ الحياةُ على الحياة**". وكما نتعلم من درويش حكمة الحياة، فها هو يتعلمها من شاعر فذ آخر هو اليوناني ريتسوس: "**وقلتُ: تعلمتُ منك الكثير. تعلمت كيف أدرب نفسي على الانشغال بحب الحياة، وكيف أجدف في الأبيض المتوسط بحثاً عن الدرب والبيت، أو عن ثنائية الدرب والبيت/ لم يكترث للتحية. قدم لي قهوة ثم قال: سيرجع أوديسكم سالماً، سوف يرجع . . . / .**".

***

لا شأن لنا الآن! على الأقل في هذا المقام، برثائك أيها الشاعر الشاعر . . . ، وربما في كل مقام آخر أيضاً. فما يخصنا منك كثير وكثير ككثيرين غيرنا، لا حصر لهم ولا عدد! ولكننا الآن في حضرة حضورك الملفّع بأبهة الغياب وهيبته! ينبغي لنا أن نقولَ قولاً قليلاً الآن، هو أقل ما يمكن أن يقال فيمن نمونا على قصائده منذ يفاعتنا التي يتضمخ جيل كامل أو أكثر بغيابها أيضاً . . . أما القول القول فهو يتراءى كشجرة زيتون عتيقة، وسيغدو كلاماً نقوله كما اقتضت الحياة قوله لا الضرورة فحسب.

***

هل يبدو مستحيلاً أن يتحول النقش على حجر إلى صورة تحلق في الفضاء؟ هل كان سؤالك يذهب بنا إلى "**كيف نقنع طلاب المدارس بكتابة أسمائهم على الحجارة لتصبح رفاً من حمام؟**"، أم أن علينا أن نكتفي بأقل ما يمكن للتعليم أن يحققه؛ "أن نكتب أسماءنا على حجر؟" أليس هذا السؤال الشعري قابلاً لكي يكون سؤالاً تعلمياً بامتياز؟ لقد كان هذا كذلك منذ زمن بعيد، منذ يفاعة الشاعر، منذ أيامه في مدرسته في كفر ياسيف، في ذلك المكان الذي تتنازعك فيه الأسئلة أو تتورط في الإجابات، وكان لدرويش من مدرسته مكان يأخذه إلى الأمكنة الأخرى في الحياة؛ إلى أسئلة أولى وقيود أولى وحرية أولى وقصائد أولى . . . إنه المكان المدرسي الذي قد ينفتح لمن يدخله أو ينغلق عليه: "**كانَ هذا المكانُ كبيراً عَلَيَّ حينَ كنتُ صَغيراً فيه. كانَ مَعْلَماً ومُعَلِّماً. فمنه أخذتني الحياةُ إلى أسئلتي الأولى، وإلى اختباراتي**

الأولى. منه أُخذتُ إلى زنزانتي الأُولى . . . إلى امتحان حريّتي الأوَّل. ومنه ذهبتُ إلى قصائدي الأولى التي أخذتني، وما زالت، إلى عذاب غربة لا شفاءَ منها، مهما اطمأنَّ الشِّعرُ إلى قدرته على تثبيت المكان فيَ اللغةِ، وإلى تشييدِ منطقة حُرَّةٍ في أعالي الكلام" . فإما حريَة تتألقَ في فضائها الاجتماعي، أو إسارٌ يتمنطق الحيز الحر، فيحيله إلى سجن، وهنا للذات أن تختار ما لها وما عليها، وأن تقرر إذا ما كان بإمكانها أن تعوم في بحيرة آسنة، أم تسبح في بحر لا ضفاف له؛ إنه سؤالُ أن يكون الفرد فرداً في الجماعة، أو أن يكون كتلة في جسدها، وهذا منوط بسؤال الذات عن فعلها وحريتها؛ " **إن التعبير عن حق الذات في التعرف إلى نفسها، وسط الجماعة، هو شكل من أشكال البحث عن حرية الأفراد الذين تتكون منهم الجماعة"** . هنا خيط دقيق يفصل بين أن تكون جزءاً من قطيع أو فرداً في مجموعة من الأفراد. أن تكونَ (أنتَ) وأن تكونَ (الجماعةَ)؛ كينونتان (أنا ونحن) دائمتا الاصطراع والتماثل، التفارق والتشابك، التآلف والتخالف، لا تنتصر إحداهما إلا لتنتصر لوجهها الآخر؛ فلا تتسيد إحداهما لتغدو الأخرى سببيتها، بل تستمران في التعاند الذي يفضي إلى حيوية مطّردة، وينوع لا يتبددُ إلا لكي يتجدد.

***

لم تنج العلاقة ما بين صوت الفرد/ الفنان وصوت الجماعة في كثير من الأحيان، وفي الغالب كانت العلاقة تتأرجح وتتمايل، تتراجع وتتقدم، وفي بعض الأحيان كانت تنحسم تماماً لأحدهما، فلكل منهما طلباته ومطالبه، وفي حالة محمود درويش كان السير صعباً ومعقداً وقاسياً في بعض الأحيان، كانت الأمور تختلط، يدخل السياسي في الثقافي ويدخل الشعبي في الأدبي، يبدوان أحياناً متضافرين ويبدوان في أحيان أخرى متنافرين، وفي كل الأحوال فقد برع الشاعر في أن يكون هو، وأن لا يترك الجماعة تشده إلى حيث "سجل أنا عربي" على براعتها وأهميتها، وبالمقابل برع أيضاً في أن يكون صوتاً خاصاً واستثنائياً للجماعة دون أن يصيب فعله الإبداعي ضرر كبير. وفي سياق كهذا، ينبغي أن نفيد من الجماعي الجامع كي يكون منطلقاً لتحفيز الخيال فيما تنقله نصوص درويش الشعرية والنثرية من إحالات معرفية واجتماعية وتاريخية، وندفع بها إلى تلق أعمق، ويتجاوز تلك التقليدية المدرسية في قراءة النص الشعري، ويجّتاز عتبة الشعبوية التي تنشغل بالإيقاع والحالة دون إعمال نظر في النص وفيما وراء النص، " **نعم، على الشعراء أن يتذكروا كل العذاب، وأن يصغوا إلى صوت الغياب، وأن يسموا كل الأشياء، وأن يخوضوا كل المعارك. ولكن عليهم أيضاً ألا ينسوا أن الشعر لا يعرَّف، أساساً، في ما يقوله، بل بنوعية القول المختلف عن العادي، وألا ينسوا أن الشعر متعة، وصنعة، وجمال، وأن الشعر فرح غامض بالتغلب على الصعوبة والخسارة، وأنه رحلة لا تنتهي إلى البحث عن نفسه في المجهول"** .

***

حين غادرَنا د. إبراهيم أبو لغد المؤسس أحد أهم من أسسوا لفكرة أن يكون هناك مركز للبحوث التربوية فكان مركز القطان للبحث والتطوير التربوي كتب درويش فيه: " فلم يعد إبراهيم ليموت، بل عاد ليسهم في تطوير الحياة التعليمية. عاد لينشر رسالة المثقف الفلسطيني إلى ذاته وإلى مجتمعه وإلى العالم: التمسك بحق العودة . . . والمشاركة في صون الذاكرة العامة، وفي بناء تصور أجمل للمستقبل، مهما كان الحاضر هشّ التكوين، ومهما أسفرت التجربة عن خيبات" . ليس لدينا أبلغ من هذا الدرس، فقد يظن الناس أن العمل في زمن التراجع والتراخي والتقهقر يكون عبثياً، فلا يمكن لنا أن نرى منتوجه على مرمى أفق، فيغلفنا التشاؤم، لقد أحس درويش بتلك الطاقة الكامنة في د. إبراهيم، ورأى أنه، وإن تحرك في خيبات، فإنه لن يغدو حبيسها، بل ستغدو ملهمة لطاقة مهما صغرت، وبدت نتائجها بعيدة المنال؛ فهي ضرورية لما يمكن أن يتخيله المرء أو يحلم به. إنه بمعنى ما، ما يوجزه غرامشي بـ"تشاؤم العقل . . . تفاؤل الإرادة" ، ولعل هذا ما نريده، وأراده لنا الشاعر أيضاً. يكفي أن ننظر في منجزات إنسانية عظيمة متحققة الآن، كانت قد نهضت من بين ركام ودمار، لو لم يكن لأصحابها تلك النظرة التي تتجاوز أفقاً وأفقاً وأفق ما كان لها أن تبدو على ما هي عليه الآن.

***

لعلي هنا، وفي هذا المقام الضيق، أختتم مكتفياً ببعض إشارات اقتبستها من نصوص شعرية ونثرية، قد تضيء مناطق ومجالات في حياتنا، وقد تبدو شذرات ملهمة لنا جميعاً:

" لا نريد أن نكون أبطالاً أكثر، ولا نريد أن نكون ضحايا أكثر، لا نريد أكثر من أن نكون بشراً عاديين" .

***

" وما زلت أتعلم المشي العسير على الطريق الطويل إلى قصيدتي التي لم أكتبها بعد. . . " .

***

- وأين وجدتَ الطفولة؟
- في داخلي العاطفي. أنا الطفل والشيخ. طفلي يعلِّم شيخي المجاز. وشيخي يعلم طفلي التأمل في خارجي. خارجي داخلي.
- كلما ضاق سجني توزعت في الكل، واتسعت لغتي مثل لؤلؤة كلما عسعس الليل ضاءت.

***

" قل ما تشاء. ضع النقاط على الحروف. ضع الحروف مع الحروف لتولد الكلمات، غامضة وواضحة، ويبتدئ الكلام. ضع الكلام على المجاز. ضع المجاز على الخيال. ضع الخيال على تلفته البعيد. ضع البعيد على البعيد . . . سيولد الإيقاع عند تشابك الصور الغريبة من لقاء الواقعي مع الخيالي المشاكس" .

***